كيف يمكن معالجة النصوص الأدبية معالجة (تداولية) معرفية؟

بلخير عمر
جامعة مولود معمري
تيزي وزو

Résumé :

Nous avons tenté à travers cet article, de démontrer la possibilité d'appréhender le texte littéraire arabe en tant qu'œuvre créatrice et en tant que corpus d'une étendue appréciable, en se basant sur la théorie de la cognition, dans son volet pragmatique et informatique. Il nous semble nécessaire d'exploiter l'outil informatique pour un traitement automatique des grands corpus, à l'instar du corpus littéraire arabe. Ainsi donc, bien que l'œuvre littéraire soit un produit du cerveau humain, il devient indispensable de soumettre cette œuvre à l'analyse pragmatico cognitive.

تقـــديـــم

أنطلق في مقالي هذه من فكرة قديمة أثيرت لدى النقاد العرب القدامى[1]، وهي الفكرة التي يحاور فيها الأدبُ والنقدُ العلمَ. فرغم كون الفكرة قد قطعت أشواطا لا بأس بها عند الأوروبيين والعرب المحدثين في المجال النقدي عن طريق توظيف نظريات اقتربت من التجريد لمقاربة النص الأدبي عموما، إلا أنّ النقد لم يتمكن من الابتعاد عن البعد النفسي للأدب الذي يصعب حصره وملامسته. والدليل على ما أقول أن نظريات التحليل النفسي لم تفقد بعد بريقها في تفسير العملية الإبداعية رغم افتقادها إلى عنصر التجسيد الإبداعي للنص، أي التحليل النصي للعملية الإبداعية وللخطاب عموما.

والنقطة الأخرى التي استرعت انتباهي والتي يجدر أن أناقشها هي كيف يمكن لنا أن نوظف هذه الطفرة التكنولوجية لاستكشاف بعض القضايا في النقد والأدب جديرة بأن تساعد الناقد والأديب على تخطي صعوبات تكاد تكون أزلية خاصة تلك المتعلقة بعلاقة المبدع بالمتلقي.

ولكي أتمكن من الوصول إلى وضع بناء منسجم يقوم بمعالجة هذه القضايا، سأستعين بميدان جديد (قديم)[2] في مجال الدراسات النفسية واللسانية، صارت ظلاله في الوقت الحالي تمتد بسرعة في مجالات عديدة من العلوم الإنسانية والاجتماعية. يعرف هذا الميدان بعلم النفس المعرفي الذي غزى بقوة اللسانيات[3] وعلم النفس وعلوم الأعصاب... والتكنولوجيا والإعلام الآلي فيما يسمى بالتفاعل بين الإنسان والآلة.

هذا الميدان المعرفي، بتفسيره العملية التبليغية تفسيرا علميا دقيقا وشموليا، بإمكانه أن يوظف بقوة وفاعلية في تفسير الخطاب الأدبي، باعتباره نتائج العملية الإبداعية، وأنا على يقين من أنه سيصل إلى نتائج لا يمكن أن نتصورها.

يتكفل هذا الميدان المعرفي من تفسير الخطاب الأدبي تفسيرا يتوقف على العمليات الذهنية التي تجري في دماغ الإنسان أثناء إنتاج النص الأدبي، وباعتبار أن النص الأدبي على غرار النصوص الأخرى التي تشكّل العملية التبليغية، هو نتاج العملية التبليغية، وبالتالي العمليات الذهنية، فإنّه بإمكاننا أن نستعين بالتداولية المعرفية وما لها من تفسيرات علمية منطقية للتبليغ، لفك ألغاز عديدة تتعلق بتفسيرنا وتأويلنا للخطاب الأدبي عموما.

لذلك سأعرض الجزء الأوّل من هذه المداخلة لإلقاء نظرة خاطفة على ما يسمى بالتداولية المعرفية، وسأتحدث فيها عن بعض إجراءاتها التي قد يستثمرها الناقد الأدبي ومحلل الخطاب عموما في الولوج إلى عمق النص الأدبي وتفسير الآليات التي ساهمت في إنشائه. وفي الجزء الثاني من المقال سأقوم بالحديث عن الكيفية التي يمكن بها استثمار بعض نقاط هذا التوجه المعرفي في مقاربة النص الأدبي والإبداعي عموما.

وفي هذا الإطار يمكن لي أن أتساءل عن الأسلوب الذي من شأنه أن تُستثمر به النظريات المعرفية، بما فيها التداولية المعرفية، في مقاربة النصوص الأدبية والإبداعية عموما ومحاولة فهم الآليات التي ساعدت المبدع على إنتاجها والمتلقي على التفاعل معها.

مدخل للتداولية المعرفية

ارتبط التفكير عند أصحاب الاتجاه المعرفي للتداولية بالتساؤل القديم الذي كان مصدر نقاش ساد لقرون عند الإغريق والعرب والأوروبيين، وهو الذي بحث في أصل اللغة الإنسانية. فقد كان من بين الآراء السائدة الرأي القائل بقدرة الإنسان الذهنية على وضع تلك العناصر التي صار يطلق عليها لاحقا اللغة.

وارتبط هذا التفكير أيضًا بالتطور التكنولوجي الذي أوحى إلى بعض العلماء بوضع آلة تشبه العقل الإنساني إلى حد بعيد، وتقوم بالوظائف المعرفية والذهنية نفسها التي قام ولا يزال يقوم بها الإنسان في حياته اليومية كالتفكير والتحليل والاستنتاج والاستدلال... ويعتقد "جاك موشلر" أن الفشل الذي وصل إليه الإنسان في وضع هذه الآلة يعود إلى تصوره الخاطئ لماهية اللغة التي اعتبرها البنويون لعقود عديدة وضعا (أو سننا) على غرار الرموز التي نجدها على مستوى قانون المرور مثلا[4].

والحقيقة أن اللغة تتمظهر في شكل تأويلات مصدرها الاستنتاجات التي تحدث في ذهن الإنسان كلما حدثت هناك عملية تبليغية، فلا يمكن لنا أن نفسر رفض الشخص دعوة صديقه بالخروج للقيام بنزهة، بالعودة إلى عنصر الوضع أو السنن. فلا بدّ من البحث في السياق الذي جرت فيه المحادثة مع الأخذ بعين الاعتبار كل العمليات الذهنية التي جعلت المتكلم يرفض الدعوة والمستمع يفهم هذا الرفض، في مقام لم يصرح فيه المتكلم بذلك.

التداولية المعرفية: مصادرها ومعالمها

لقد أشرنا في أحدى أعمالنا[5] أن تحديد البنويين لماهية اللغة هو الذي أظلهم لإدراك البعد الحقيقي للغة، وهو الذي مهد الطريق واسعا لانتشار التداولية، باعتباره اللغة مزيجا مترابطا من السياق الخارجي ومجموع العمليات الذهنية لدى المتخاطبين، ولا أبالغ إذا قلت إن التداولية المعرفية نشأت مع المنظرين الأوائل للتداولية من أمثال أوستين وسيرل وجرايس. فإذا حللت على سبيل المثال أعمال أوستين لوصلت إلى نتيجة مفادها أن تأدية العمليات الإنجازية هي نتيجة لما يحدث في ذهن المتكلم

من عمليات. فحينما نقوم بفعل الأمر، فإنّنا نبني في أذهاننا صيغة لغوية هي في الحقيقة نتيجة لمعرفتنا بظروف المأمور وبقدرتنا على إصدار الأمر وعلى معرفتنا بشروط إنجاز هذا الأمر وتنبئنا بنتائج استصدار هذا الأمر، فإن تأويل هذا الكلام على أنه أمر، وأنه يتعين عليه الإذعان له، وأن معرفته بمرتبته كمأمور، جعل المستمع يغير من سلوكه ومن معتقداته، فالأمر هو فعل ذهني قبل أن يكون فعلا اجتماعيا، لأن الاستنتاجات التي جعلت المتكلم يُصدر فعل الأمر، هي نفسها التي جعلت المأمور يذعن له.

ولو نظرنا في أعمال سيرل فسنجد أن كل المفاهيم التي ميّزت نظريته الكلامية طغت عليها الصبغة الذهنية للكلام. فلو يتأمل المرء في الآليات التي وضعها ليفسر كيفية انتقال الدلالة من بُعدها الصريح إلى بُعدها التلميحي، لألفينا أنفسنا نفسر ذهنيا، وبصفة كلية، هذه العمليات الذهنية التي تتسبب في انتقال الكلام من المباشرة (أو التصريح) إلى اللامباشرة (أو التلميح)[6].

والملاحظ أيضًا أن المقاصد التي يعتبرها أوستين وسيرل لتفسير العنصر الإنجازي للغة، وهي ظاهرة ذهنية لا شك، يصعب الوصول إلى الكشف عنها بالوقوف، أساسًا، على البنية اللغوية.

والفضل في ظهور الاتجاه الذي شكّل ما نسميه حاليا بالتداولية الذهنية أو المعرفية، يعود إلى الفيلسوف الإنجليزي جرايس الذي أولى الظواهر الاستنباطية والحالات الذهنية للمتكلم وقدرته على إسناد هذه الحالات للآخر الأهمية الكبرى، مما يسمح له بتأويل أقواله بصفة كاملة ومقبولة[7].

فالخطوة الأولى التي خطاها جرايس ليحدد بصفة لا واعية، في اعتقادنا، معالم التداولية المعرفية، هو تمييزه بين الدلالة الطبيعية والدلالة غير الطبيعية، إذ يتجلى الفرق بين المفهومين في الأمثلة التالية:

1 - صفارة الحافلة تشير إلى إمكانية توقفها.

2 - البثور الموجودة على وجه زيد دليل على إصابته بالجدري.

3 - إن غرفة زيد شبيهة بزريبة الخنازير.

فالمثل 1 و2 يرتبط تأويلهما بمفهوم الدلالة الطبيعية لأنها تعكس العلاقة السببية بين معاني الملفوظين.

أما تأويل الجملة الثالثة فيتوقف على المضامين التي يسعى المتكلم إلى تبليغها باختياره الملفوظ المناسب لذلك. ويرتبط تحديد مفهوم الدلالة غير الطبيعية عند "جرايس" باعتراف المخاطب بمقصد المتكلم وتأثره بقوله.

جرايس ومنطق المحادثة

في مقال نُشر له عام 1975 بعنوان "المنطق والمحادثة" Logic and conversation، تعرض فيه إلى مفهومين مصيريين في تطور الدراسات التداولية المعرفية، هما الاستلزام التخاطبي ومبدأ التعاون. فبمقتضى هذا المبدأ الأخير يعترف كلّ طرف في الخطاب لنفسه وللآخر بالحق في الكلام وفي التناوب عليه، وانعدام التفاهم بين المتخاطبين مرجعه غياب ذلك الاعتراف المتبادل منذ البداية، فهذا يسمح لهما بتأويل صحيح وعقلاني للملفوظات.

ويقرّ جرايس أن هناك طريقتين للتواصل، الأولى تتمثل في الدلالة الوضعية المحتواة على مستوى الكلمات المشكّلة للجملة والدلالة غير الطبيعية التي يتم التوصل إليها عن طريق الاستلزام التخاطبي.

ولكي يشرح هذا المفهوم، يضرب جرايس مثالا بشخص إنجليزي أراد أن يخبر الآخرين أن الإنجليز شعب شجاع:

- الإنجليز كلهم شجعان Tous les anglais sont courageux
- جون إنجليزي فهو إذن شجاع John est anglais, il est donc courageux
- جون إنجليزي إنه شجاع John est anglais, il est courageux

في الجملة الأولى تمّ الحصول على محتوى الجملة انطلاقا من الدلالة الوضعية للجملة، فلا يوجد هنا استلزام. وفي الجملة الثانية هناك استلزام لكن سببه هو الرابط "إذن" Donc. أما في الجملة الثالثة فالاستلزام سببه قوانين الخطاب التي اهتدى إليها، إذ لا وجود لعنصر وضعي كان سببا في الوصول إلى الاستنتاج بأن الإنجليز أناس شجعان.

المصدر المعرفي والذهني للتداولية

مما لا شك فيه، أن الدراسات التي يتضمنها مفهوم التداولية المعرفية، مصدرها الأوّل أعمال الفيلسوف الإنجليزي جرايس الذي أشار بحدة إلى دور الاستنباطات في تأويل الملفوظات، وذلك أثناء وضعه لنظرية أحكام المحادثة. فهذه الاستنباطات التي تشكّل العمليات الذهنية الكامنة على مستوى دماغ الإنسان تستند إلى السنن اللغوي الذي اكتسبه الإنسان. فالاستنباطات والعمليات الذهنية الأخرى تتوقف على الدلالات المعجمية لكلمات اللغة المتواجدة في دماغ الشخص.

والمعروف أن ويلسون وسبربر هما اللذان وضعا الأسس المنهجية والمعرفية لهذه النظرية، رغم كونهما لا ينتميان إلى مدرسة جرايس ولا كانا من التابعين لجرايس. فقد قامت نظريتهما على النقد البناء لأفكار جرايس وعلى تبني الأفكار الذهنية لبعض علماء النفس الذهنيين، ومن أشهرهم جيري فودور.

وقد اتفق العالمان في مرحلة أولى مع جرايس على اعتبار أن العناصر اللغوية تشكّل سندا للعمليات الاستنباطية، إلا أنهما ابتعدا عنه، فيما بعد، باعتبار أن التأويل التداولي للملفوظات مصدره ظواهر عامة وغير مختصة وذات صبغة عالمية[8] (بالمعنى التشومسكي) وغير محددة من الناحية الثقافية ويشترك فيها جميع البشر وحتّى بعض الحيوانات المتطورة ذهنيا والقريبة من الإنسان.

فودور ونظام الوحدات

يعد فودور المصدر الثاني للتداولية الذهنية عند ويلسون وسبربر، وقد تأثر فودور بنظام الملكات الذي وضعه Gall في القرن التاسع عشر، فيما يسمى بعلم النفس الملكات Psychologie de facultés، طوّر فودور هذه النظرية فيما أسماه نظرية الوحدات Théorie modulaire، ومقتضاها أن العقل الإنساني يتحكم فيه نظام تراتبي أثناء تحليله للمعلومة مهما كانت طبيعتها (سمعية، بصرية، لسانية، ذوقية...). فهذا التحليل يمر بمراحل تشكّل العقل الإنساني: المحول والنظام الجانبي والنظام المركزي.

فالمحول هو الذي يسمح للحدث مهما كانت طبيعته، أن تتم ترجمته لكي يتحول إلى النظام الذي سيقوم بتأويله. أما النظام الجانبي،

فهو وحدة متخصصة في تحليل المعطيات التي تمّ إدراكها، فالمعطيات الحسية تختص وحدة ما بتأويلها، والمعطيات اللغوية كذلك، والمعطيات البصرية أيضا... فالوحدة اللغوية لا يتعدى تأويلها للمعطيات اللغوية البعد المعجمي الذي سيقوم النظام المركزي بتأويله.

أما النظام المركزي فيحتوي على ذاكرة دائمة تسمح للدماغ، استنادا إلى عمليات ذهنية خاصة، أهمها الاستنباط، من التأويل اليومي والمستمر للمعطيات والوسائل التي تصل إليه باستمرار، وتسمى هذه الذاكرة بالمعرفة الموسوعية للفرد.

حتّى وإن كان هذا التفسير للتأويل القاعدة التي انطلق منها ويلسون وسبربر، إلا أنهما أبديا في مرحلة متقدمة من نظريتهما عدم اتفاقهما على هذا النظام المؤسس على نظام الوحدات المغلق، وهو ما أدّى بهما إلى اقتراح تفسير آخر يقترب أكثر من مفهوم تشومسكي للبنية العميق والبنية السطحية يدعوه موشلر بنظام الوحدات المعمم[9]. فنجد جيري فودور يميز بين وحدات مُدخلاتها حسية ومُخرجاتها مفهومية، أما ويلسون وسبربر فيعتبران أن النظام المركزي غير موجود البتة، إنما يوجد هناك نظام وحدات فقط، تنقسم هذه الوحدات إلى وحدات إدراكية ووحدات مفهومية. فالوحدات اللغوية توفر معطيات للوحدات المفهومية التي تتكفل بالتأويل التداولي للمعلومة. وبين مرور المعلومة من الوحدة الإدراكية إلى الوحدة المفهومية تتدخل هناك وحدة أخرى تدعى نظرية العقل التي تقوم بتجلية عملية التأويل التداولي. فتفسيرهما لانتقال المعلومة من نظام لآخر (على غرار نظام البنية السطحية والبنية العميقة) يمكن تفسيره كالآتي: تقوم الوحدة اللسانية بإعطاء تأويل أولي للملفوظ (الدلالة اللسانية) يكون في صورة شكل منطقي، أي تتابع

من المفاهيم تتطابق مع المكونات اللسانية للجملة. وهي التي تشكّل مقدمات للعمليات الاستنباطية لتأويل الملفوظ، مستندة في ذلك إلى المعرفة الموسوعية للفرد عن العالم.

هذا النظام يسمح للإنسان من بناء تصور للعالم قابل للتغير، عن طريق توسيع معارفه ومداركه باستمرار.

مفهوم السياق

إنّ تأويل الملفوظات يتم بطريق عمليات استنباطية، مقدماها الشكل المنطقي للملفوظات بإضافة معلومات أخرى تشكّل ما يمكن تسميته السياق. فهو يتشكّل أساسا من المعارف الموسوعية التي يتم الدخول إليها عن طريق الأشكال المنطقية والمعطيات المستقاة مباشرة من المحيط الفيزيائي ومن المعطيات التي تمخضت عن تأويل الملفوظات السابقة. هذه المعطيات كلها يسميها العالمان المحيط الذهني والمعرفي. فالسياق، في هذا الإطار، هو جزء صغير من المحيط الذهني أو المعرفي للفرد في فترة معينة[10].

فالسياق غير موجود مرّة واحدة، إنما يتم بناؤه عن طريق الملفوظات المتتابعة، فمفهوم الشكل المنطقي يلعب دورا مهما في تحديد مفهوم السياق، فمظهر الشكل المنطقي يشكّل عناوين لمفاهيم يتم البحث عنها في الذاكرة الدائمة. وتسمح هذه العناوين بالتوصل إلى المعلومة المحتواة بدورها في المفهوم، وهذه العناوين تقوم بالتوصل إلى المعلومة المحتواة بدورها في المفهوم، وتنتظم المعلومة في مداخل مختلفة باختلاف المعلومات:

- المدخل المنطقي: يقوم بجمع المعلومات حول العلاقات المنطقية التي تربط مفهوما بمفاهيم أخرى (الاستلزام، التناقض...).

- المدخل الموسوعي: يقوم بجمع المعلومات المحتواة في المواضيع المناسبة للمفاهيم.

- الوحدة المعجمية: تقوم بجمع مقابلات المفاهيم في لغة أو أكثر من اللغات.

إن عنوان المفهوم يسمح لنا بالولوج إلى المعلومات التي يحتويها الشكل المنطقي، أما المعلومات التي من شأنها أن تشكّل السياق فهي مستقاة من المدخل الموسوعي. وفي حال تشكّل السياق عن طريق المعلومات الخاصة بالمحيط المدرك ونتائج تأويل الملفوظات السابقة، يضاف إليه الشكل المنطقي للملفوظ ليشكّل مقدمة لتأويلات لاحقة. فتجرى عمليات الاستنباط الضرورية للخروج بخلاصة أو مجموعة من الخلاصات التي تساهم في إثراء تأويل الملفوظ. وفي إطار إرجاع قضايا من النظرية التداولية المعرفية الذهنية لدى ويلسون وسبربر إلى الجهاز المفهومي لنظرية جرايس، يرى موشلر[11] أن المؤلفين يلتقيان مع جرايس في مفهوم المقصد، حيث يقسمان المقاصد إلى نوعين:

- القصد الإخباري، الذي مفاده قصد المتكلم حمل مخاطبه على معرفة خبر معين.

- القصد التواصلي: وهو قصد المتكلم جعل المخاطَب يفهم مقصده الإخباري.

وهذا النوع الثاني يتناسب مع تعريف جرايس للدلالة غير الطبيعية، ويجعل النقاد واللسانيين يعتبرون نظرية ويلسون وسبربر هي مواصلة

لإرث وجهود جرايس، بل يقترحان مفهوم التواصل الظاهر الاستنباطي الذي يرتبط مباشرة بالمقصد الإخباري والمقصد التواصلي. فالتواصل الظاهر الاستنباطي لا يرتبط فقط بالتواصل اللساني، بل يتجاوزه إلى الظاهرة التبليغية عموما. والتواصل التبليغي يتحقق حينما يجعل المتكلم مخاطبه يدرك بفعل ما مقصده المتمثل في إخباره بخبر معين. وأهم مثال على هذا المفهوم، ذلك الذي ضربه موشلر بقوله لنتصور أن امرأة تتنزه في مكان مشمس وفي بلد تكثر فيه العواصف الخطيرة، وأثناء نزهتها هذه يتقدم إليها شخص عارف بأحوال الطقس في تلك البلاد ويجذبها من كم قميصها مشيرا إليها بإلحاح إلى السُحُب، وهو يقصد بذلك إخبارها بخطورة عواصف تلك البلاد.

فيكون بذلك قد حقق قصدا ظاهرا استنباطيا دون أن يتلفظ بكلمة، وهو قدوم خطر طبيعي. والجانب الاستنباطي يكمن في فهم المرأة أن السُحُب قد تتبعها عواصف، والعواصف ظواهر طبيعية تشكّل خطرا على الإنسان، وفي هذه الحالة يتعين عليها أن تبقى في مكان آمن. وكنتيجة لذلك أراد الشخص لتلك المرأة بأن تمكث في مكان آمن لأن العاصفة قريبة.

إنّ النشاط المعرفي الذهني يهدف إلى بناء أو تغيير تمثل للعالم يبنيه الفرد، فهذه العملية يلعب فيها التواصل دورا يسمح له بإضافة معلومات جديدة لما هو موجود لديه. فهذا التمثل للعالم يشترط فيه أن يكون حقيقيا عن طريق النشاط الذهني الذي لا يساهم فقط في تطوير هذا التمثّل.

والجديد في هذه النظرية هو دمج سبربر وويلسون أحكام جرايس في حكم واحد هو حكم المناسبة (الإفادة Pertinence) وجعل

الأحكام الثلاثة التالية: الكمية والكيفية والبيان تتبع حكم الإفادة، الذي سميت به نظريتهما.

ويرتبط مفهوم الإفادة عند هذين العالمين بالآلية التي تربط الإفادة بالمفاهيم المشار إليها سابقا، وهي القصد الإخباري والقصد التواصلي، وبصفة أدق بالقصد الظاهر الاستنباطي. حيث يعتبران أنه لا وجود للتواصل الظاهر بدون أن يحتوي على فائدة جلية.

ولوضوح أكثر، نقول إن أي تبليغ لكي يشد انتباه الآخر ويشكّل محور تأويلاته، عليه أن يحتوي على عنصر يضمن إفادته. وهي القاعدة التي بنيت عليها التداولية الذهنية لسبربر وويلسون والتي مقتضاها أن **لا وجود لنشاط تبليغي دون أن يكون هناك ضمان إفادته**.

فلو عدنا إلى المثال السابق الذكر، نقول إنّ مبدأ التبليغ الظاهر الاستبطاني هو الذي تسبب في جعل المرأة تفهم قصد الرجل العريف. فالسُحُب بمفردها غير دالة على الإفادة، إنّ حركة الرجل هي التي أضفت إفادة على العملية التبليغية وأحدثت سلسلة من الاستنباطات والتأويلات.

وينبني مبدأ الإفادة أيضًا على مفهومي الأثر والمجهود. فإذا عدنا إلى المثال السابق سنقول إنّ المرأة قامت ببذل مجهود ذهني في البحث في المعطيات التي وفرتها لها معطياتها الموسوعية بتوظيف استنباطات معينة للوصول إلى نتيجة أن السُحُب تشير إلى اقتراب عاصفة ستشكّل خطرا علي، وهو ما أشار إليه إلحاح الرجل.

أما أثر ذلك فهو تلك النتائج التي تمخضت عن المجهود الذي بذلته تلك المرأة.

لذلك تعرف الإفادة عن طريق العنصرين السالفي الذكر:

- كلما تطلب الفعل التواصلي الظاهر الاستنباطي جهدا لتأويله كلما كان الفعل مفيدا.

- كلما ازداد أثر الفعل التبليغي الظاهر الاستبطاني، كلما كان هذا الفعل مفيدا.

إنّ المجهود الذهني تحدده طبيعة المحفزات محل التحليل: مثل طول الملفوظات والبنية النحوية والشروط التي تحدد المداخل المعجمية. أما الأثر السياقي فهو نتيجة لتحليل الملفوظ، تمّ تأويله نسبيا بالنظر إلى سياق خاص، وهناك ثلاثة أصناف من الآثار السياقية:

- إضافة معلومات: ويسمى الاستلزام السياقي ويستعمل لوصف استلزام مصدره الملفوظ والسياق على حد سواء.

- حذف المعلومات: حينما يكون الاستلزام السياقي متناقضا مع قضية تحتويها الذاكرة، يحذف الأضعف منهما.

- دعم قوة القضية المدعومة.

وخلاصة كلّ ذلك أن مفهوم الإفادة يرتبط مباشرة بمفهوم المردود، لأن النشاط الذهني للمتكلم يدعو هذا الأخير إلى ردود فعل مناسبة ومدعمة لمقاصده. فالنظام المركزي يشتغل على البحث من أجل توسيع عنصر الإفادة.

ولا تكون الإفادة إلا إذا تمّ اختيار المعلومات المناسبة من السياق، أي تلك التي من شأنها أن تحدث أثرا سياقيا. والشيء الذي يمنع النشاط التأويلي من الذهاب إلى ما لا نهاية هو ذلك التوازن الذي يحدث في حد معين من التفكير بين الآثار السياقية والمجهودات التأويلية.

مستويات التناول المعرفي للنصوص الأدبية

يرى سيلفان برودهوم Sylvain Prudhomme أن الدراسات المعرفية من شأنها أن تبعث فكرة إعادة التفكير في المزاوجة بين الدراسات الأدبية من جهة والنظريات العلمية من جهة أخرى. وتتم هذه العملية على مستويين:

- مستوى فعل الكتابة.
- مستوى فعل القراءة.

لأنه في كلا المستويين يتم تعبئة عمليات ذهنية تنشئ لدى المبدع والمتلقي جملة من الملكات تسمح بتحقيق هذه العملية التفاعلية التي تدخل في إطار مبدأ الأدبية.

هذه العمليات الذهنية يمكن وصفها وفهم مساراتها بالاستعانة، حصريا، بعلم النفس المعرفي[12].

من بين الأعمال القليلة التي حاولت استثمار هذا الميدان بكل جزئياته كتاب Cognition et création لمؤلفيه Mario Borillo & Jean Marie Goulette فالكتاب هو محاولة استكشاف معرفية لنفسية المبدع والولوج إلى أدنى نقطة من العملية الإبداعية التي أنتجت النص الأدبي أو اللوحة الزيتية أو المنحوتة الصخرية أو الخشبية... والعمل على وصفها وتفسيرها ضمن ميدان متعدد العلوم والمعارف كعلوم الأعصاب Neurosciences وعلوم اللغة والإعلام الآلي والرياضيات... وتقوم التحليلات ضمن هذا التوجه على وصف مختلف المراحل المتتابعة للعملية الإنشائية والإبداعية، وتقوم أيضًا على عملية تعليم هذه الإبداعات، والمساعدة على الإنشاء الآلي لها.

فإذا كان كتاب Borillo وGoulette، يهتم بصفة عامة بالظاهرة الإبداعية، فإنّ كتاب Marie Thomas Crane الموسوم بـ: Shakespears Brain, Reading with cognitive theory اهتم بالإبداع النصي. فقد هدف هذا الكتاب إلى الكشف عن شبكات من الكلمات التي احتوتها كلّ مسرحية من مسرحيات شكسبير، وهي كلمات ربطت بينها جملة من الاستعارات المكانية تعكس في مجملها أشكالا ونقاطا محورية للمعجم النفسي والمعرفي لشكسبير. فهناك تركيز أساس على النص يسمح بالكشف عن رهانات أساس لفهم المسرحيات المدروسة. والتدخل الجانبي للنظرية المعرفية، في هذا الإطار، يكون على أساس اعتبار النص مظهرا نفسيا فريدا من نوعه، قابلا لأن يعاد بناؤه عن طريق استنباط الخصائص الأساس له. ويشير الأستاذ د.لوغرو إلى أن دراسات عديدة أثبتت أن البحث في البنية النمطية للسرد الذي يعتبر الظاهرة التي قتلت دراسة في الأدب والنقد، يتعين دراستها لا من الناحية الشكلية بل من حيث كون النص يمثل عالما خاصا، ولا يوجد أفضل من علم النفس اللغوي المعرفي لمعالجة هذا النوع من النصوص[13].

قد لوحظ أن التجربة الإبداعية عند الإنسان، عموما، والإنسان العربي بصفة خاصة، قد أثمرت إلى حد بعيد وقد تكوثرت (على حد تعبير الفيلسوف طه عبد الرحمن) النصوص الإبداعية والنقدية، والكل يدرك أهمية هذا التراث في بناء الوعي القومي والإنساني، إلا أن ما يثير الانتباه هو أن هذا الركام الأدبي والإبداعي لم يتم استثماره على أحسن وجه، والسبب في رأيي يعود إلى شبه استحالة استيعاب الأديب والناقد لكل هذه التجربة التي تراكمت لقرون عديدة. وأعتقد شخصيا، أن الطفرة التكنولوجية الحالية لها القدرة على استثمار هذه التجربة،

على الأقل في جانبها الكمي، لتُقدم للناقد والمبدع في قالب يسمح له باستغلالها واستثمارها من أجل أن يحل العديد من المشاكل المطروحة في الساحة النقدية المعاصرة، كتلك المتعلقة بالمنهج والقراءة والنص...

وفي هذا السياق أقترح أن تنفرد مجموعات بحث في المجال اللساني والإعلام الآلي والنفسي والمعرفي والأدبي بالتكفل بهذه المهمة التي نعتبرها غاية في الأهمية في خدمة الأدب والنقد. وقد رأينا في الوطن العربي وفي بلدان أوروبا وأمريكا وبعض البلدان الآسيوية من يقوم بعملية جرد إلكتروني شامل وجامع لكل المدونات[14]، ثمّ يتمّ تحليلها ومعالجتها بطريقة آلية تستجيب للأهداف التي سطرت لها في بداية المشروع، والجديد في هذا أن المعالجة الآلية ستخضع لعمليات معقدة تأخذ بعين الاعتبار قضايا جوهرية غير تلك التي اعتادت عليها بعض التجارب السابقة من تحليل للأصوات والمفردات والجمل، بل إن تجاوز هذه المستويات سيشمل المستويات المجاوزة للجملة وهي مستوى النص ومستوى الخطاب، وسيأخذ بعين الاعتبار قضايا تخرج عن المستوى المادي المحسوس لتشمل جانب الذاتية وجانب العواطف وجانب السرائر... وهي مستويات استطاع علم النفس المعرفي من استثمارها في إطار ما يسمى بالتفاعل بين الإنسان والآلة في إطار ما يدعى بالذكاء الاصطناعي. وأشير فقط إلى أن هذا التحليل الآلي للنصوص الأدبية لن يقوم مقام التحليل النقدي ولا الإبداع النصي[15].

بعض مظاهر "المعرفية" في الفكر النقدي العربي القديم

أتجنب أن يكون هذا المبحث تنظيريا "للمعرفية" في الفكر النقدي العربي القديم، لأنني لست من الذين يقحمون النظريات الحديثة إقحاما قسريا على النصوص القديمة، بل سأقوم برصد بعض العبارات التي وظفها

بعض العلماء القدامى في مجال النقد والأدب وهي تشير إلى مظاهر من "المعرفية" بالمعنى المعاصر لهذا المصطلح. ونرجو أن توحي هذه الأشارات إلى بعض الدارسين والناقدين لتقصي النصوص العربية القديمة بالوقوف على هذا التوجه الجديد والخصب في الدراسات اللسانية والإنسانية.

والسبب، في اعتقادنا، يعود إلى الظاهرة الإبداعية والأدبية من جهة، كونها ظاهرة نفسية أكثر منها نصية، بل إن النص ما هو سوى التجسيد المادي لما هو نفسي ذهني؛ ومن جهة أخرى، نعتقد أن العرب القدامى لم يتقصوا الظاهرة النفسية في تفسير الظواهر الأدبية لأن المصدر النفسي كان هو بداية "النقد" لديهم، باعتبار أن أوليات هذا النقد كان انطباعيا. لكنني لن أقوم في هذا المقام بمحاولة تفسيرية لكل مصطلح قصد إرجاعه إلى أصوله النفسية المعرفية، بل سعيي هو لفت انتباه القارئ الناقد للنصوص العربية القديمة والحديثة، وإلى إمكانية سبر أغوار الإبداع الأدبي بالاستناد إلى النظرية المعرفية، رغم إقراري أنه قد لا يصل إلى النتائج التي قد تشفي غليله وتسد عطشه.

وعليه فإنني سأقوم بجرد بعض العبارات والمصطلحات التي تحيل إلى تدخل النفس والذهن بقوة في العملية الإبداعية، وسأكتفي في هذا المجال بكتاب واحد يعد عمدة في مجال البلاغة والنقد وهو كتاب **أسرار البلاغة** لعبد القاهر الجرجاني الذي يقوم في مقدمته: «... وفي ثبوت الأصل ما تعلم به أن المعنى الذي له كانت هذه الكلم بيت شعر أو فصل خطاب هو ترتيبها على طريقة معلومة وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة، وهذا الحكم أعني الاختصاص في الترتيب يقع في الألفاظ مرتبا على المعاني المرتبة في النفس المنتظم فيها على قضية العقل...»[16].

ويقول في هذا المقام: «فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا أو يستجيد نثرا، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول: حُلو رشيق وحَسن أنيق، وعذب سائغ وخَلوب رائع، فاعلم أنه ليس يُنبئُك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف وإلى ظاهر الوضع اللغوي، بل أمر يقع من المرء في فؤاده وفضل يقتدحه العقل من زناده»[17].

وتجدر الإشارة إلى أن هذه القاعدة التي وضعها "الجرجاني" في تفسير الإبداع وتلقيه على أنه كذلك، كان قد طبقها بشموليتها في تنظيره في التجنيس. فيقول: «... أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا...»[18]

وفي موقع آخر، ربط جودة الاستعارة وحسنها بالفائدة أو لنقل الإفادة، فحينما فسر استعارة "رأيت أسدًا"، يقول « فقد استعرت اسم الأسد للرجل، ومعلوم أنك أفدت بهذه الاستعارة ما لولاها لم يحصل لك، وهو المبالغة في وصف المقصود بالشجاعة وإيقاعك منه في نفس السامع صورة الأسد في بطشه وإقدامه وبأسه... »[19].

خـــاتـــمـــة

إنّنا متأكدون، ختاما، من أننا قد نكون على حق في الكثير مما ذهبنا إليه في مقدمة هذا المقال إذا تكفل باحثون بوضع منهجيات ملائمة أساسها علم النفس المعرفي والتداولية المعرفية، وهو الأمر الذي جعلنا نقول إن البحث في هذا الميدان وبهذا الأسلوب، قد يُفضي إلى نتائج ملموسة قد تغير الكثير من الناحية الأدبية والنقدية.

الهوامـــش:

1. بالخصوص قدامة بن جعفر.

2. تعود أصول التوجه المعرفي إلى أعمال مدرسة بوروايال الفرنسية وأعمال ديكارت وتشومسكي.

3. لقد تبنت الجانب الذي فسّر الخطاب تفسيرا لسانيا ونفسيا فيما يسمى باللسانيات التداولية المعرفية أو التداولية المعرفية، التي، حسب علمي، أعطت تفسيرا دقيقا وشموليا للعملية التبليغية يقترب من العملية أكثر من المقاربات الأخرى.

4. Moeschler J. Reboul A (1998), *La Pragmatique aujourd'hui, Points – Essais*, P.17.

5. بلخير عمر (2003)، **تحليل الخطاب المسرحي في منظور النظرية التداولية**، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2003، ص 35 — 37.

6. Searle J. (1972), *Sens et expression*, Paris, Le Seuil, P.71-77

7. J. Moeschler, A. Reboul, Op cit, P.48.

8. تجدر الإشارة إلى أن ويلسون وسبربر كانا قد تأثرا بنظرية "تشومسكي" وبخاصة في مفهومي البنية السطحية والعميقة ومفهوم التحويل.

9. Moeschler et Reboul, P.68.

10. Idem, P.69.

11. Idem, P.71.

12. Prudhomme S. (2008), *Littérature et sciences cognitives*, in *Labyrinthe*, N°20.

13. Legros D (1991), *le traitement du texte poétique, in psychologie française*, Dunod, paris, P.188.

14. انظر في ذلك مشروع الذخيرة اللغوية الذي تقدم به د. عبد الرحمن الحاج صالح والذي تبنته 18 دولة عربية عام 2008.

15. والدليل على ذلك محاولة قام بها شخص يدعى فرانسيسكو رايس Francisco Reyes، بإنشائه لموقع إلكتروني ينبني على مجموعة من المحركات تقوم على إنشاء عدد من المقطوعات الشعرية القصيرة HAIKUS مبنية على إنتاج الشتائم والرطانة الفلسفية... وهو www.charabia.net

إلا أنني شخصيا لا أشجع مثل هذه المحاولات، بقدر ما أنصح بالاشتغال على معالجة المدونات الكبرى، معالجة تستجيب لأعقد العمليات الذهنية عند الإنسان والقيام على استنباط أشياء تغيب عن ذهن الناقد الذي يستحيل عليه استيعاب كلّ ما أنتجه الإنسان منذ قرون، لتتشكّل في ذهنه فكرة واضحة للمسار النقدي والإبداعي لدى الإنسان.

16. الجرجاني، عبد القاهر (1983)، **أسرار البلاغة**، تحقيق هـ. ريتر، دار المسيرة، بيروت، لبنان، ص04.

17 . الجرجاني، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

18. نفسه، ص 06.

19. نفسه، ص 31-32.